مادة الأدب الإسلامي / المرحلة الثانية

د. ميسون محمد عبد الواحد

المحاضرة الرابعة عشرة

عنوان المحاضرة: (موضوع الرثاء والحكمة)

أولا/ الرثاء:

يعد الرثاء من الأغراض التقليدية في الشعر العربي؛ لأنه مرتبط بالنفس الإنسانية والحقيقة الأزلية التي تتجلى أن في نهاية كل كائن حي هناك الموت والزوال؛ مما جعل الشعراء يبكون على موتاهم أو قتلاهم ، ويسجلون ذلك شعرا. وهناك عنصران في هذا البكاء هما:

١-تسجيل مشاعر الراثي ، وإظهار لوعة حزنه وفجيعته.

٢-بيان مكانة المرثي وتأبينه، أي ذكر خصال الخير التي عرف بها في زمانه.

وقد تطور هذان العنصران في العصر الإسلامي ، وفيما يخص العنصر الأول فقد تطور تطورا كبيرا عند شعراء الدعوة الإسلامية إذ تختفي معالم اليأس والحزن القاتل في رثاء الشهداء ، ويشير الشعراء الى أن هولاء الشهداء ما فُقدوا من الحياة الدنيا إلا ليهنأوا بالحياة الآخرة، حيث ثواب الله للمجاهدين في سبيله والشهداء في الجنة. أما بالنسبة للتطور الذي أصاب العنصر الثاني وجدنا أثر الإسلام واضحا في هذه المناقب حين تقترن المناقب بسيرة المرثي الإسلامية، وبقربه من النبي – صلى الله عليه وسلم– وأدائه واجب الشهادة ، والتزامه بمبادئ الدين الإسلامي الحنيف.

وقد تشتمل المرثية على تعداد الصفات على طريقة عصر ما قبل الإسلام لأنها لا تتعارض مع تعاليم الإسلام مثل الشجاعة والبطولة وغيرها من الصفات.

من ذلك رثاء حسان بن ثابت للرسول – صلى الله عليه وسلم:

بَطَيبَــةَ رَســمٌ لِلرَســولِ وَمَعهَــدُ مُنيــرٌ وَقَـد تَعفـو الرُسـومُ وَتَهمَـدِ

وَلا تَمتَحـي الآيـاتُ مِـن دارِ حُرمَـةٍ بِها مِنبَرُ الهادي الَذي كانَ يَصعَدُ

وَواضِــحُ آثــارٍ وَبــاقي مَعــالِمٍ وَرَبــعٌ لَــهُ فيــهِ مُصَــلّى وَمَســجِدُ

إذ يقف حسان على الديار وهي ليست كديار الجاهليين وآثار الأحبة إلا أنها ديار الرسول – صلى الله عليه وسلم– التي تظهر أمام عيني الشاعر في كل درب وزاوية في المدينة المنورة. فهو يقف بها ويبكي الآثار ولكنه بكاء لا يشبه بكاء شاعر ما قبل الإسلام. فهذه آثار باقية واضحة المعالم لا تزول، إنها آثار النبوة المتمثلة بالمسجد النبوي الذي كان يجلس فيه النبي واليوم يجلس فيه المسلمون.

وهناك أيضا مراثي الخلفاء الراشدين التي تدور حول المعاني الإسلامية والصفات الخُلُقية التي أمرت بها الشريعة الإسلامية ، من ذلك رثاء الخليفة عمر بن الخطاب –رضي الله عنه – بأنه إمام المسلمين العادل وأن الله سيجازيه خير الجزاء:

جزى الله خيراً من أمير وباركت يد الله في ذاك الأديم الممزقِ

ورثاء الخلفية عثمان بن عفان – رضي الله عنه – ووصفه بالشهيد وذكر جهاده مع شيخوخته:

لبيك بنو عثمان ما دام جذمهم عليه بأصلال تعرى وتخشب

ويرثي أبو الأسود الدؤلي الإمام على – كرم الله وجهه ورضي الله عنه– فهو أمير المؤمنين وأقرب الناس الى النبي – صلى الله عليه وسلم– وهو قدوة للمسلمين لأمانته وتقواه وعدله:

ألا يا عين ويحك أسعدينا ألا تبكي أمير المؤمنينا

ثانياً / الحكمة:

وتعد الحكمة من المعاني الشعرية المعروفة في شعر ما قبل الإسلام، فقد كان الشاعر يتأمل حياته وواقعه، وحال قبيلته، ووضع الإنسان فيها ، ونظرته الى الحياة فهناك من رأها فانية وتأمل الحروب فيها فزادت نفسه رغبة في الحياة ولجأ الى مغريات الحياة وملذاتها وانغمس فيها، بينما شعراء آخرون نظروا الى الأمور نظرة أخرى فالمنايا تخبط خبط عشواء لا يفلت منها أحد وما على الإنسان إلا أن يعمل ما يخلد ذكره بين الناس.

ولقد ذهب بعض الباحثين الى القول بقلة شعر الحكمة في عصر صدر الإسلام، وأن الحكمة في شعر حسان قليلة؛ لأن حسان في الجاهلية قد اتسع وقته لارسال النصائح والحكمة، والنظرات التأملية والكلام في أخلاق الناس. وذكر آخرون أن سبب قلة شعر الحكمة هو القرآن الكريم الذي شغلت حكمته الشعراء وغيرهم؛ مما أغناهم عن تقديم حكمهم في أشعارهم.

ونرى أن هذين التعليلين غير كافيين لأن الواقع الإنساني والشعري يرفضان فكرة نضوب الحكمة في شعر صدر الإسلام ؛ لأن طبيعة الأحداث التي مرّ بها العربي تفرض عليه أن يقف متأملا مستخلصا أفكاره ونظراته للحياة مما يشهده في مجتمعه وبيئته الجديدة. وإذا كان للقرآن أثر في معاني الحكمة فهو أثر كبير لا صرف الشعراء عنها وإنما في نوجيهها وجهة موافقة لما وجهت إليه أفكار الناس، وسلوكهم نحو العمل الجدي النافع لمجتمعهم طبقا لقوله تعالى: (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك).

ومن الأمثلة على شعر الحكمة قول معن بن أوس المزني:

وذي رَحِم قلَّمتُ أظفار ضِغْنِه　　　بحلميَ عنه ، وهو ليس له حِلم

يحاول رَغْمي لا يُحاولُ غيره　　　وكالموت عندي أن يعربه الرَّغْمُ

فإن أعفُ عنه أُغض عيناً على　　　وليس له بالصَّفْح عن ذنبه علمُ

وإن أنتصر منه أكُن مثل رائشٍ　　　سهامَ عدوٍّ يُستهاضُ بها العظمُ

صبرتُ على ما كان بيني وبينه　　　وما يستوي حرب الأقاربِ والسِّلمُ

شرح الأبيات:

١- رب صاحب قرابة كان ذا ضغينة وحقد عليَ ، أزلت أضغانه بحلمي وصبري ، مع أنه ليس عنده حلم وإنما هو غضوب نفور.

٢- ومن صفاته أنه يحب قهري وإنزال الأذى بي ، وقد وقف جهده على هذا ، في حين

أننـــــي أكـــــره مســـــاءته ونـــــزول أي أذى بـــــه كراهيتـــــي للمـــــوت.

٣- وأنا في حيرة من أمري معه ، فإنني إن أصبر على أذاه وأعف عنه ، أتحمل مشقة

عظيمة بذلك ، وهو لا يدري المعاناة التي أعانيها بالصفح عن ذنبه ، وليس يدري

حتى بالصفح نفسه.

٤- ويؤلمني أن أقابل إساءته بمثلها أشد الألم ، إذ أنني سأكون كمن يجهز السهام لعـــــدوه ليرمـــــي بهـــــا مـــــن جهزهـــــا.

٥- لكني فضلت الأولى وهو الصبر على ما بدر منه تجاهي ، لأنني وجدت أن حرب الأقارب مر الأثر ، ففضلت مسالمتهم.

و الشاعر يبدو وكأنه يبوح لأحد جلسائه بتجربته ، مضطجعاً في بيته ، هادئ النفس ، مطمئن السريرة ، لم يحجب الغضب بصيرته طلباً للثأر ، مقدماً بكلمة (ذي رحم) لتكون بمثابة البؤرة التي بنى عليها سلوكه، وقد أكثر من التصبر والتذلل إزاء هذا الذي لا يستحق كل ذلك، وكأنه يريد القول: لقد أتعبت نفسك ، وألزمتها ما لا يلزم ؛ ولكن الرحم تستحق ذلك وأكثر منه.

ويبدو أن الشاعر قد قال قصيدته في الإسلام ، وهذا ظاهر من تأثره بقوله تعالى : (واتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ والأَرْحَامَ) .